الموت بين شهادتين

زينب منتصر

وسط جموع محتشدة في ميدان التحرير ، امرأة في ثوب ارجواني ، وما هي الا لحظات حتى كانت تحتل مركز الدائرة ، وفي لمحة خاطفة أبصرت هدفها . رشقت السكين في الصدر . غاصت بها حتى مقبضها المعقوف الذي يأخذ شكل علامة استفهام حادة المنحنى . بعدها وقفت تعدل من هيئتها . ازدردت ريقها . شدت قامتها الى أعلى . بدت متزنة غاية الاتزان . حملقت بنظرات منتقمة للدم القاني الحار المتدفق . ازدردت ريقها للمرة الثالثة . ثم رفعت السكين بهدوء الظافرين . ثم توجهت بلفتة خفيفة الى الجمع الهائل الذي كان يزداد كثافة ، موجة تلو الاخرى ، محاولا احداث شرنقة صلبة تغلفها . شهرت السيف الاعزل ، فكشفت عن زند ضعيف واهن ، ربما استمد قوته من لحظة تاريخية سحيقة قد مضت . تقدمت ثلاث خطوات قصيرة . شعرت من خلالها أنها تبث ذعرا في نفوس ذلك الحشد الهمجي المتشرنق .

تراجعت بلهفة تبصر الذئب القابع في دمائه النازفة بلا انقطاع ، دارت حول نفسها دورة غير مكتملة. ثم أطلقت عبارة حادة دوت في أرجاء الساحة بأكملها :

« أنا أخت صالح عبد القادر . زوجة شريف مقبل . أم عصام شريف » .

وسرعان ما تدحرجت ثلة من ضباط وعساكر الشرطة ، تندفع لاهثة من بين الثقوب المتاحة هنا وهناك، لتحاصر الموقع من جميع الاتجاهات . تعجب الجميع من عبارة هذه السيدة ، التي ظلت ترددها حتى القبض عليها . تعجب الجميع من عدم مقاومتها . وتعجبوا أخيرا من تكرارها المرعب لنسبها هذا ... « أنا أخت صالح عبد القادر ، زوجة شريف مقبل ... أم عصام شريف » . .

● ● ●

ـ ما اسمك ؟

ـ تحيات عبد القادر .

ـ شغلتك ..؟ اعني المهنة ؟

ـ على باب الله !!

ـ ما معنى على باب الله ؟!

ـ من « باب الخلق » الى « باب الحديد » ..!

ـ ما تفسير هذا اللغو ؟

ـ ولدت في باب الخلق وعشت فيه . ثم تزوجت في باب الحديد وانجبت فيه !

ـ هل تحدثيني بالالغاز والرموز في محضر رسمي؟!

ـ أنا لست ممن يعتنون باللغة ، أو من محاسيبها ..

وقبل أن تكمل ردها ، انهال عليها الشرطي القابع خلفها ، بلكمات عنيفة ساخنة توالى وقعها على ظهرها وخصرها ، في حمى انفعال شيطاني .

ظلت تحيات متحملة في اباء وشمم. واعتمدت على أسنانها وأنيابها ، تضغط عليهما بشدة ، حتى لا تفقد ثباتها او تتحرك ، لكن ملامح وجهها كانت تخونها باستمرار ... عاود المحاور طرح أسئلته ..

ـ قلت لك كفاك الغازا ، ورموزا ، ومكابرة ..!

أتت اجابتها بعد فترة صمت ليست بقصيرة ، ربما لانها كانت مشغولة بقرص شفتيها من الداخل ، وفجأة وعلى دون رغبة من تحيات لمعت عيناها ببريق عين القط الاسود في حجرة مظلمة .. تنهدت مرة و .. ثم ثالثة..

ـ سبق وان قلت لك ، انني على باب الله . منه جئت واليه أعود ...

ـ كفانا لغوا ، واستهزاء غير مشروع .

وهب مذعورا منتفش الشعر ، مسندا يده على مكتبه الذي يأخذ شكل حدوة الحصان ، وباشارة موحية من أحد أصابعه ، اختفت تحيات بصحبة شرطيها . وهو يخوض معها مهارة لاعب السيرك المحترف في ترويض النمور الضالة .

● ● ●

في ظل الصوت الغائب ، وصورة الجمع القادم ، اهتزت أجفان تحيات بدمعتين تساقطتا على ساعديها ،

وهي تحاول النهوض، أمام شيخ يتقدم نحوها. ومع تقدمه الوئيد ، أخذ شكلا مجسما . انها امرأة تشرف على الوضع .

سرحت بأفكارها عندما كانت حاملا بعصام ولدها .. ترتاد كل الاماكن ، ومعظم الحوانيت . تمسح الشوارع والازقة والميادين . غير عابئة بما تحمله في أحشائها من ثقل مضن ، يتصعب له معظم الرجال قبل النسوة .!

باغتها صدى الصوت ، بعد أن تعذر الصوت الاصلي ـ للمرأة الحامل ـ في الوصول الى سمعها مباشرة ... أهلا وسهلا . أنا سمية ، بعدها أطلقت تحيات يدها . تسلم وتصافح صاحبة الصوت القادم من الاحشاء ... أهلا ...

ـ هل لي أن أساعدك في شيء ما ؟

ثم وضعت احدى يديها تسند بها ظهرها المنبعج الى الامام في قسوة ، والاخرى حشرتها بين ثدييها وبطنها المنتفخ كبالونة على وشك الانفجار ، تفصل بين الاثنين بالحق .

ردت تحيات على محدثتها :

ـ يبدو أن لا أحد بمقدوره مساعدتي ..!

ـ لماذا ..؟.. ما هي جريمتك ؟

قالت بتلقائية وببساطة شديدة :

ـ قتل . نعم قتلته .

قفزت المرأة مذعورة ومتقهقرة الى الخلف . تمسك بجنينها ، وظلت متلعثمة بعض الوقت . واذا بها تفجر كل ما لديها من ذخيرة نسائية صوتية . وبين الصراخ والعويل والصوات » والولولة ، انزلقت المرأة على ظهرها فاقدة القدرة على الحركة . انتشرت خارج الغرفة (هرجلة) لفعل على وشك الانفجار . بدا حادا واضحا من أصوات الصفارات . ودبدبة الاقدام ، واذ بالباب يفتح بعنف وتندفع مجموعة لا بأس بها من الحراس والحارسات ، ومن شدة اندفاعهم انكفأ معظمهم على وجوههم ، مع استمرار تدفق مدد آخر تخلله خمسة ضباط . ومع قدوم الضباط الخمسة ، تثبت كل واحد في موضعه بلا أدنى حركة أو صوت فيما عدا المرأة الحامل التي ظلت تجأر مستغيثة . وما هي الا لحظات حتى تحولت الى عجينة تنضح بعرق غزير مصدرة أصواتا مرعبة بألفاظ نابية ، لم يتمالك الضباط أعصابهم وتبادلوا التلويح والهمس للمرأة فيما بينهم بلا جدوى . في حين ظل بقية القطيع ما بين منبطح ومنكفيء . رؤوسهم تلامس أحذية أسيادهم . أما البقية القليلة الواقفة ، فقد فتحت فاها كعالم من البلهاء ...

استمر هذا المشهد دقيقة تلتها أخرى ، وفي الدقيقة الثالثة ، اندفعت قذيفة من سروال المرأة . تبكي بكاء حارا متدفقا . لحظتها اندفعت تحيات لانقاذ المرأة ومولودها وتطلب من الجميع مساعدتها . ولكن أحد الضباط قذفها بعيدا بعصاه ، وأمر الحراس أن يحملوا المرأة خارج الغرفة ... وفي وحدتها ظلت تبكي .. تبكي .. بكاء الميلاد والحياة .. ولم تشعر بالزنزانة وجدرانها الصلبة الباردة ، وانما شعرت بأنها تجوب القرى والمدن .. والمصانع والحقول .. والحواري والنجوع ... معانقة فيها ميلاد حياة جديدة ..

ـ مرة أخرى بل أخيرة ... ما الذي دعاك ، أو بمعنى أصح دفعك لان تقولي هذه العبارة المحددة بعد ارتكابك لجريمتك البشعة النكراء ؟

ـ .....

ـ وأمام هذا الكم الهائل من المارة ، دون خوف أو تردد ؟

ـ .....

ـ وأنت تؤكدين عليها عشرات المرات ؟

ـ .....

ـ نظر في ورقة أمامه وقال « أنا أخت صالح عبد القادر . زوجة شريف مقبل . أم عصام شريف ..؟!

ـ قلت تاريخي كله .. ماضي .. وحاضري .. ومستقبلي .

ـ ستعود للالغاز والرموز مرة أخرى ... أما كفاك تعذيبا وقهرا ؟

أما كفاك ذعر النسوة الهادئات ، الوديعات ؟ أما كفاك نشر الرعب بينهن ، حتى كدت أن تقتلي « سمية فتح الباب » المسكينة مع طفلها الوليد توا !!

خطر في ذاكرة تحيات وهي تسمع هذه الكلمات المزيفة جملة الجبرتي (عجيب أمر هؤلاء الفرنسيس) وعادت مشدوهة مرة اخرى أمام سيل من الزيف والاتهامات يثرثر به ذلك المحقق .

ـ هه ... ألم تعثري على اجابة ؟ ... بالطبع لا..

أتت منها كلمة : « عجيب » ثم تمالكت أعصابها واكتفت بالصمت .

ـ ما هو العجيب أيتها المرأة الماكرة ، المتوحشة . الشرسة ؟ لقد نفذ صبري . ونضبت انسانيتي أمام همجيتك ، وحيوانيتك .

دق الجرس الواقع تحت قدمه اليسرى مباشرة . وجاء الشرطي المعهود متقمصا دورا جديدا . دور الفتوة لحظة احتياج جسده لجرعة الافيون ... أمره أن يدعوها عنوة ، لتناول وجبة دسمة من الغذاء العضلي ، حتى يمنحه بعدها تلك الجرعة المطلوبة لمنع لعابه السائل .

● ● ●

شارف الشهر على الغروب ... وهذه خامس زنزانة تغيرينها يا تحيات . الضابط ذو النجمة الثلاثية القابع وراء المكتب ـ حدوة الحصان ـ يرى في تغييرك هذا ، تغييرا أشبه بتبديل الغوازي لبدلات رقصاتهن في الموالد السبعة ، وهن على استعداد لان يبعن كلّ شيء في سبيل البدلة الثامنة للمولد القادم . وانت تشعرين بأن الهزال قد أخذ منك مأربه ، والعقوبة ازدادت رائحتها واستفحلت ، حتى أصبحت تلفك من رأسك الاصلع المحترم حتى اخمص قدمك الممزقة ... لكن هل استكانت روحك ..؟ هل ضعفت أيتها الانسانة .. الاخت .. الزوجة .. الام ؟

انتفضت تحيات واثقة ... لا ... لا . أنا عند وعدي .. أنا لست أنا . أنا (بكره) القادم .. أنا . وقبل أن تكمل منولوجها الداخلي ، تخطفها يد خشنة ، غليظة ... « سيادة المأمور » تتدحرج كجسد رث شبه فاقدة الوعي . تصطدم بجدار حدوة الحصان ـ المكتب ـ تحضن حدوة الحصان . وهي تبثه سرها النازف في الاعماق . ليتك ما كنت لهم . لا بد وأن تكون لنا وتستكين على هذا الوضع .

.. وتأتي نفس اليد الغليظة . محاولة تخليص المكتب من قبضتها . وفصلها عنه ، ومن المرارة تنفصل تحيات تدريجيا ، وعلى الاهانة والالم واللعنات المجوسية تكون قد استيقظت وانتعشت من جديد .

● ● ●

تقف بكتفين متهدلين ، ويدين لا مباليتين ، شبيهة بطائر جريح ، أضناه السفر والترحال ، فوقف يستجمع قواه المصادرة لطيران مرة أخرى الى أن يلفظ انفاسه الاخيرة .. طائرا .. طائرا .. حرا .. طليقا .. في الفضاء .

أتاها صوت المأمور متحشرجا ببقايا سيجارته السميكة . تدفق الدخان من فمه ، وانفه ، وأذنه ، كالحيوانات الاسطورية دفعة واحدة ... وفي شكل آمر .. ناه .

ـ هل قتلت الشيخ عبد الواحد ؟

هزت رأسها بحركة تعني الايجاب .

ـ أريد أن أسمع صوتك . هل أصابك بكم مفاجيء؟ لا يوجد وقت . استهلكت كل محاولاتك الماكرة . وحبل المشنقة اشتاق اليك . ومتلهف للالتفاف والانقضاض على عنقك الازرق أيتها الحية . بعد سويعات ستنزاح الغمة. وسينفرج الكرب ، بزوالك من الدنيا ، وعذابك في الاخرة ، مع زمرتك .. زمرة الكافرين ، والمارقين ، والزنادقة . لن تهدأ روحك أبدا ، ولن تستقر فأنت شيطانة ...!

ـ ....

ـ لماذا لا تردين عليّ .. أنطقي ؟

هل طلب مني أحد أن تكلم أثناء حديثك ؟

ـ ماكرة .. كافرة .. لعينة .. هل قتلت الشيخ عبد الواحد ؟

ـ نعم .. (قالتها في تؤدة بالغة) .

ـ قلت نعم ...؟ نعم ماذا ؟ (محاولا حثها على تكملة اعترافها باشارات من يده).

ـ نعم قتلته ... نعم قتلت عبد الواحد .

ـ عظيم .. عظيم .. (عبد . قالها متهللا) .. عبد الواحد .. عبد الواحد .. لا لا الشيخ عبد الواحد (ما هذا المنزلق أيها المأمور ... اثبت ..) برافو .. برافو .. حنوصل سوا .. لماذا قتلته ؟

ـ لاني أخت صالح عبد القادر ، زوجة شريف مقبل، أم عصام شريف .

ـ تحرياتنا تقول أن كل نسبك صحيح .. صحيح مليون بالمية .. لكن أتوسل اليك ان تجيبيني بمنتهى الصراحة والوضوح والتحديد ، مثلما جاوبتني على سؤالي السابق مباشرة .

لا لن أجيبه على سؤاله هذا .. لن أريحه أبد الدهر، لانه يعرف لماذا قتلته ، يعرف من هو عبد الواحد .. السفاح .. السمسار .. التاجر العميل .. والا لماذا قال عنه ، عبد الواحد بدون ألقاب ، هل لاني استدرجته في هذا فقط ؟ أم أن هناك ...!!.. لا .. لن .

واستمرت تحيات تقول .. لا .. لن ..! في سرها وهي مطأطئة الراس ، وحين رفعت رأسها لتواجه المأمور ... التزمت الصمت مرة أخرى ...

ـ صمتك هذا لن يفيدك ... ربما اذا أطلعتني على السر ، أخفف عنك حبل المشنقة ، لا ادعي انني سأجعل منك بريئة ، كلّ البراءة ، لكن أهون الامرين ، سوف أشغل الجرائد بقضيتك زيادة على اشتغالها . سأجعل منك نجمة أولى على شاشة التلفزيون بشكل فريد لم يره الجمهور من قبل .. وموجات الاذاعة .. نعم موجات الاذاعة سآمرها بجعلك لحنا مميزا في برامجها المختلفة ... وطبعا هذا من شأنه أن يثير الراي العام ضده ... لا .. لا .. « ما هذا الشطط وتلك الانفلاتة غير المسؤولة أيها المأمور » .. ان .. ان تجعل من ضحية لنزوات عدوانية ، سيطرت عليك وقت ارتكاب الجريمة وجعلتك مسلوب الارادة الانسانية الطبيعية .. يعني .. أقصد أنك أنت .. نعم أنت لم تكوني أنت الان الواقفة أمامي..!!

ومن جملته الاخيرة ، جملة المأمور ، انفجرت تحيات ولاول مرة وقد امتلأ فمها غضبا وملوحة :

ـ ما الذي تقوله أيها المأمور (وعانقت يديها في الفضاء وهي تقول) لقد قتلته بيدي هاتين ... ولا بد وأن تسجل هذا حرفيا. لقد صممت على قتل عبدالواحد. قتلته وانا في كامل قواي العقلية .

انهار المأمور مولولا :

ـ أنا الذي فقدت قواي العقلية ..!

وجلس يخبط على رأسه بشدة ، مثلما تفعل الام الثكلى في تشييع فقيدها الشاب . وما هي الا لحظات حتى توقف مذعورا رافضا اظهار انهياره أمامها . وقد حملق فيها ، بتحد واشمئزاز :

ـ هل تعرفين معنى كلامك هذا ؟ .. انك قتلت الشيخ عبد الواحد مع سبق الاصرار والترصد !

● ● ●

ـ في قوانينكم هذا جائز ، اما في قوانيننا .. ودستورنا فهذا واجب بل حتمي .

ثم عاودت رفع رأسها وعيناها محتبستان بنظرات حارقة لهذه الحجرة وهذا المبنى بما فيه من كائنات خرافية ، يديرها هذا المأمور .

حدثها بتودد مصطنع :

ـ ها .. سوف تسحبين كلامك السابق. ـ المهم ـ المهم أن تخبريني .. لماذا قتلت الشيخ عبد الواحد .. سأمنحك خمس دقائق ، تستجمعين فيها شجاعتك فأنا أعترف انك امرأة شجاعة .. قد نختلف فيما بيننا حول تحديد معنى الشجاعة .. لكن المهم .. انك شجاعة .. الا يكفيك أني اعترفت بشجاعتك وجها لوجه ؟... سأتركك الان تتدبرين الامر .. وأنا سأظل ساكنا .. صامتا .. أستمتع بحديثك وأنت تقصين علي ذكريات لحظة مضت ، صحيح انها ثقيلة على نفسك بعض الشيء ، ولكن تذكري دائما ، أريد منك أن تتذكري دائما .. انها الشيء الوحيد الباقي أمامك .. ، والقادر على انقاذك من فخ المشنقة المنصوب لك .

● ● ●

سادت الغرفة فترة صمت . كانت ثقيلة على مشاعر المأمور المهتاجة فظل يجوب الغرفة ذهابا وايابا . تارة ينظر في ساعته التي تقترب من منتصف الليل ، وتارة أخرى ينقر عليها نقرات ضعيفة .. ويأخذ سيجارة ليشعلها . فيفاجأ بأن في فمه سيجارة مشتعلة . يقذف بالسيجارتين على الارض ، ويهرسهما ليشعل سيجارة ثالثة . وتارة يتجنب السير أمامها حتى لا يقطع أفكارها، فيقف بجوار النافذة بعيدا عنها ، يرقبها خلسة ، وهو يعبث بيديه محاولا ازاحة بخار الماء الذي تكاثف على زجاج النافذة من الداخل . وبعد مله من أفعاله وحركاته ، قرر أن يجلس أخيرا على مكتبه ـ حدوة الحصان ـ ثم أخذ بفتاحة الورق ، والتي تشبه الى حد كبير السكين الذي قتلت به تحيات الشيخ عبد الواحد . يدق بها على سطح المكتب ، فتأتي برنين أشبه برنين جرس الكنائس في أعياد الميلاد الكبرى . ويعد المأمور أرقاما غير متتالية. ملوحا بالسكين في بعض اللحظات الخاطفة في الهواء .

● ● ●

لم تشعر تحيات بأي قلق أو اضطراب ، ولم تشعر بتوتر وضجر . كل ما شعرت به ، تلك الرائحة ، رائحة العفن المتصاعد والذي أخذ يمتد على حواسها لحظة تلو الاخرى، بجو الحجرة الخانق واختلاطه بالدخان .

ـ فات من الوقت سبع دقائق .. بعد أن جعلته عشر دقائق كاملة ..

قال هذا بنفاذ صبر ، وحنكة المدربين معا .. ثم عاود لعبة الدق وتلاوة الارقام . وقبل ان يكمل عقرب الثواني دورته لتنتهي العشر دقائق . ويأتي يوم جديد. دفع باب الحجرة رجل يرتدي جلبابا وطاقيه ، وفي يده تتدلى عصا الشرطي الغليظة السوداء ..

قدم التحية لسيده اولا . ثم قال :

ـ لقد استوفينا التحريات يا سعادة البيك ، وكلها تجزم بان صالح عبد القادر استشهد في ٦٧ ... وشريف مقبل توفي في ٧٣.. وعصام شريف لقي مصرعه في ٧٨..!

ارتمت تحيات على الرجل صارخة محاولة خنقه. وهي في حالة انهيار تام .. جعلها تجأر وتستجير .. ثم تهذي ...

ـ لا .. لا تقل ان عصام مات .. حقيقة ان اباه مات .. وقبله استشهد اخي ، لكن (عصام) ابني الامل .. عصام (بكره) القادم ، من احشاء الذكرى والتاريخ .. هل يمكن للشجرة ان تموت بكاملها ..؟!

لا .. لا يمكن ! تجف .. تيبس .. لكن لا يمكن ان تموت .. مستحيل .. هذا ضد طبيعة الاشياء. والا الارض قد ماتت .. لا .. لا عصام الشجرة عصام النبت الاخضر القادم ..

واستمر صوتها في الخفوت تدريجيا .. وهي تردد عصام البسمة .. الغنوة الحلوة ساعة الفجر .. الضحكة البكر .. الكلمة البلسم .. السيف الاخضر .. الترس .. المصنع .... ، .... ، ...

وعندما وضعوا رقبة تحيات داخل حبل المشنقة، ادرك جلادها انها قد فارقت الحياة ، قبل رحلة الاعدام الرسمية .!